الفصل الرابع
البارودى بين السجن والنفى

بعد القبض على البارودى ، زُجَّ به فى غياهب السجن وكانت حياة السجن تجربة جديدة بالنسبة له أثارت فى نفسه مشاعر الألم والإلهام ، فكتب شعرا يصف نفسه بين سجنه وسجانه يقول فيه:

شفنى وجـدى وأبلانى السـهر ... وتغشتنـى سمادير الكـدر
فسـواد الليل ما إذن ينقـضى ... وبياض الصبـح ما إن ينتظر
لا أنيس يسمع الشـكوى، ولا ... خبر يأتى، ولا طيف يمـر
بين حيطـان وبـاب موصـد ... كلمـا حركه السجان صر [1]
يتمشـى دونـه ، حتـى إذا ... لحقته نبـأة[2] منى استقـر
كلمـا درت لأقضـى حـاجة ... قالت الظلمـة : مهلا، لا تدر
أتقـرى الشـئ أبغيـه ، فلا ... أجد الشئ ، ولا نفسى تقر [3]
ظلمة ما إن بهـا من كـوكب ... غيـر أنفاس ترامـى بالشرر

وقد انتدبت "عديلة هانم" زوجة البارودى المحامى الانجليزى "بردلى" للدفاع عنه، فزاره فى زنزانته فذكر له البارودى ما يتعرض له من سوء معاملته فى السجن ومع ذلك فإنه لم يكن يفكر إلا فى مصر ، وبعد أن قامت المحكمة باستجواب البارودى والتحقيق معه وتوجيه تهمه العصيان والخيانة له حكم عليه فى جلسة السابع من ديسمبر ١٨٨٢ بالقتل بناء على المادة ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة من قانون

---

(١) صر : صوت ، والاسم الصرير.
(٢) النبأة : الصوت الخفى
(٣) تقر : بمعنى نفسى تهدأ وتطمئن.

الجنايات ثم استبدل الحكم بالنفى المؤبد مع تجريده من أملاكه ورتبته العسكرية، كما نص القرار على إعدامه إذا عاد إلى الأقطار المصرية أو ملحقاتها. وفى الخامس والعشرين من ديسمبر ١٨٨٢ أقتيد الزعماء السبعة وهم أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى ، وطلبه عصمت ، ويعقوب سامى، ومحمود فهمى من سجن الدائرة السنية إلى ثكنات قصر النيل ثم توجهوا فى قطار خاص إلى السويس تحت الحراسة المشددة تمهيدا لنفيهم إلى جزيرة سيلان Ceylon . وحانت ساعة الفراق بعد أن استقل الباخرة فى منتصف نهار ٢٧ ديسمبر إلى مقره الأخير ووقف البارودى يلقى نظرة الوداع على الوطن الحبيب فكتب قصيدة يقول فيها:

ولما وقفنـــا للوداع وأسبـلت مدامعنـا فوق التـرائب كالمزن [١]

أهبت بصبـرى أن يعود فعزنى ونادیـت حلمـى أن يثـوب فلم يغن

ولم تمـض إلا خطرة ثم أقلعت بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن [٢]

فكم مهجة من زفرة الوجد فى لظى وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن[٣]

وفى منفاه عاش البارودى وحيدا حيث رفضت زوجته السفر معه كتب البارودى القصائد الخالدات ، حيث لازمته ربة الشعر لا تفارقه، فكتب مدافعا عن نفسه ودوره فى الثورة ، يرد على الافتراءات التى طالته فى أعقاب الهزيمة فيقول:

لم اقترف زلة تقضـى على بـما أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ذنـب أدان بـه ظلما وأغترب

---

(١) الترائب: جمع تريبة أعلى الصدر، والمزن السحاب ذو الماء.

(٢) الخطرة هنا كناية عن اللحظة القصيرة.

(٣) الدجن : المطر الكثير.

أثريت مجدا ، فلم أعبأ بما سلبت أيدى الحوادث منى، فهو مكتسب
وما أبالى ونفسى غيـر خاطئـة إذا تخـرص أقـوام وإن كذبوا
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية ولا يشيد بذكر الخامل النشب[1]

وقال فى قصيدة أخرى :

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذل خوف الموت كانت حيـاته أضر عليه من حمام يؤده [2]
وأقتـل داء رؤيـة العيـن ظالمـا يسئ ويتلى فى المحافل حمده
علام يعيش المرء فى الدهر خامـلا أيفـرح فى الدنيـا بيوم يعده

وبعد ثلاث سنوات من النفى تصل للبارودى الأخبار معلنة وفاة زوجته السيدة "عديلة" بالقاهرة ، فيشعر بالحزن لفراقها ، وتضيف عذاب الغربة التى يتعرض لها عذاب الألم من أجل زوجته ، وتدركه ملكة الشعر فيقول عاتبا على الدهر يستنكر منه فجيعته :

يا دهر فيـم فجعتـنى بحـليلة كانـت خلاصة عدتى وعتادى
إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادى؟

كما يقول فى قصيدة أخرى:

فسقطت مغشيـا على كأنمـا نهشـت صميم القلب حية وادى

ويطحن البارودى الألم بفراق " زهرة حياته " ويكاد يقضى عليه، ويسحقه الحزن عليها حتى يوهن عزمه، ويحطم عوده كما يقول:

أبلتنى الحسرات حتى لم يكد جسـمى يلـوح لأعيـن العـواد

---

(١) النشب هو العقار أو المال .
(٢) يؤدى أى يدهاه بداهية.

وتتمثل له زوجته فيتحدث إليها وكأنه يناجيها، ثم يهلع من تصورها فى جواف القبر المعتم ، ويتمنى لو أن هناك فداء لفداها بنفسه فيقول:

أسليلة القمرين ! أى فجيعة ... حلـــت لفقدك بين هذا النادى؟

أعزز على بأن أراك رهينة ... فى جوف أغبر قاتم الأسداد!

لو كان هذا الدهر يقبل فدية ... بالنفس عنك ، لكنت أول فادى

ثم تتجدد مواكب الأحزان على البارودى فيأتيه البريد من مصر يحمل وفاة ابنته "سميرة" فيهد الحزن قوته ، ويدب الضعف فى جسده ، وتمتد مشاكله الصحية إلى عينيه وخلال ذلك لم يفتر حنينه إلى الوطن لحظة، ويتمنى العودة إلى الوطن، ويشكو طول شوقه إليه فيستغيث بربه قائلا:

يارب قد طال بى شوقى إلى وطنى ... فاحلل وثاقى وألحقنى بأشباهى

وامنن على بفضل منك يعصمنى ... من كل سوء فإنى عاجز واهى

هذا دعائى وحسبى أنت من حكم ... يعنـــو له كل شـــاه أو شهنشاه

ويقوى الزهد عند البارودى ويشتد حتى يكاد يصل به إلى أعتاب التصوف، فيحس بنور الحكمة يغمر قلبه بعد أن وهب نفسه لله ، ويشعر من شدة وجده أنه فى حبه قوى العزيمة كما يقول:

دينى الحنيـــف وربى الله ... وشهادتى أن ليس إلا هو

لا جاه لى إلا بطـــاعتـــه ... ولنعم عقبى الطاعة الجاه

أنا خاشع لجـــلال قـــدرته ... متقلب الجنيـــــن أواه

زهت القلوب بنور حكمته ... وتعطرت بالذكر أفـــواه

أنا أمة وحدى على سرف ... فى حبة والناس أشبـــاه

إن تاه غيرى بالزمان فلى ... قلب بذكر الله تيـــــاه

وخلال فترة النفى لم ينس البارودى أصحابه من ذوى الأدب والمعرفة فى مصر وغيرها فظل يوافيهم برسائله كما كتب إليه الأدباء والعلماء من العديد من البلدان العربية يواسونه فى محنته ومن هؤلاء "الأمير شكيب أرسلان " الذى كان لا يقطع عنه الرسائل خلال مدة منفاه كما تبادل معه "الشيخ محمد عبده" الرسائل فكان يكتب إليه من منفاه فى بيروت وظل حبل الود متصلا بينهما.

ويمتد النفى والاغتراب بالبارودى حتى يبلغ الستين من عمره فيبلغ به اليأس مداه، ويحيط بها من كل جانب، وتطفأ شموع الآمال كلها فى قلبه وفى عينيه ، فتصبح الحياة عنده سواء نعيمها وشقاؤها، ويلفظ مآربه منها بعد أن تمنعت عليه، ثم يرمى عبء ذلك كله على ظالمه ، فيقول:

أبعد ستيـــن لـــى حـــاج فأطلبـــها؟ هيهات ! ما لا مرئ بعد الصبا حاج
لا أحفل الطيـــر إن غنت وإن نعبت سيان عندى صفار وشحاج [1]
يستعظمـــون من الحجـــاج صـــولته وكل قوم بهم للظلم حجـــــــاج

ومع الستين تهاجم البارودى فى شيخوخته العلة والمرض، وتسوء صحته ويعود الارتشاح إلى قرنيته بقوة ، ويهدد عينيه بالظلام الأبدى. فيفزع البارودى ، ويصيبه الهلع من أن يعيش رهين المحبسين، ويضاعف له الهلع العذاب حتى ليتمنى الموت خلاصا منه، وبعد الكشف الطبى عليه كتب مفتش عام الصحة بسيلان تقريرا ذكر فيه ان البارودى يعانى من جلوكوما Glucoma فى عينيه أزمنت معه، وكادت تفقده عينه اليمنى، كما أن عينه اليسرى لا تقوى على عد أصابع اليد، وان هذا المرض ليس له

(١) الصفار : الكثير الصفير وهو للطيور . والشحاج : الغراب الكثير النحاب.

علاج وسينتهى بالعمى لتمزق القرنية، وانه يعانى من اكتئاب نفسى شديد نتيجة مرضه والوحدة التى يعانى منها، ولذلك أثره السئ على حالته واقترح ان تسمح له الحكومة المصرية بالعودة إلى وطنه لظروفه الصحية.

وحول ذلك كتب البارودى شعرا يقول فيه:

متى ينقضى عمر الحياة فتنقضى مآرب كانت علة للمظالم ؟

وقد أرسل حاكم سيلان نتيجة الكشف الطبى إلى الحكومة البريطانية فى لندن التى أرسلت بدورها إلى اللورد كرومر فى مصر تطالبه باتخاذ اللازم بعد أن قرر الأطباء بسيلان بعد اشتداد وطأة المرض على البارودى وضرورة عودته إلى وطنه لمعالجته فى المناخ الذى ولد وشب فيه ، وأشاروا إلى أنه سيصاب بالعمى لا محالة إن ظل بالجزيرة، وقد وافق الخديوى عباس الثانى على عودته إلى مصر وإعادة ممتلكاته إليه، وذلك طبقا لأمر الخديوى ونصه " بناء على الطلب المرفوع لنا من محمود سامى بالتماس الإحسان عليه بالتمتع بالحقوق الوطنية، فقد اقتضت مكارمنا منح المومى إليه التمتع بالحقوق الوطنية وعلى ذلك فيجوز له من الآن امتلاك أى ملك من أى نوع كان فى الأقطار المصرية بطريق الإرث أو الهبة أو البيع بأى طريقة كانت الذى كان محروما منه".

وبعد عودة البارودى إلى وطنه تواكب عشاق الأدب وأهل الفكر ، والعديد من الأهالى إلى داره "وكلهم لهفة وشوق إلى شعره فغنى لهم البارودى " انشودة العودة قائلا:

أبابل رأى العين أم هذه مصر فإنى أرى فيها عيونا هى السحر

ويمضى البارودى يتغزل فى مصر فيقول فيها:

رضيت من الدنيا بحبك عالما بأن جنونى فى هواك هو الفخر

وتستقبل الصحف الوطنية البارودى بمقالات حافلة فيكتب على يوسف "محرر المؤيد": عاد محمود سامى (باشا) البارودى إلى القاهرة عائدا من منفاه ، والله أعلم بمقدار ما خامر قلوب أهله وأصدقائه من الفرح، بل وما خامر قلبه وامتزج بكل حواسه منه عندما وطئت أقدامه تراب النيل بعد أن بلغ به اليأس منتهاه. وقصدت داره ولم أكن قد رأيته من قبل، فإذا هو رجل ربعة يميل إلى الطول قليلا نحيف الجسم كأنما هو ناقه من مرض طويل، كث اللحية، أبيض العارضين ، مختلط شعر الرأس مع صلع خفيف، وقد وضع على عينيه نظارة سوداء تلطيفا لأشعة الضياء.. وسألته عن رفاقه فى جزيرة سيلان وهم عرابى ويعقوب سامى وعلى فهمى فقال: إن صحتهم جميعا سيئة ، وتتدهور يوما بعد يوم ، فعسى الله أن يفك الكرب عنهم، ويشملهم بعطفه فيعودوا إلى الديار".

وقد فتح البارودى بيته كمنتدى للشعراء والأدباء يأنسون إليه ويأنس إليهم يستمتعون بحديثه ، ويستمع إلى آرائهم ومناقشاتهم وكان من هؤلاء إسماعيل صبرى وأحمد شوقى وخليل مطران وحفنى ناصف وحافظ ابراهيم ومحمد ابراهيم هلال وحامد خلوصى وحسن حمدى، وعبد المحسن الكاظمى، ومصطفى صادق الرافعى وحافظ ابراهيم من الشعراء. والشيخ محمد عبده ورشيد رضا من العلماء وغيرهم من أهل الفكر وعشاق الأدب، وكان هؤلاء ينهلون من شعر البارودى ، كما قام حافظ ابراهيم بإنشاد قصيدة للإشادة بالبارودى ومواقفه الوطنية فقال:

أمير القوافى إن لى مستهامـــة ... بمدح ومن لى فيك أن أبلغ المدى
أتيت ولى نفس أطلت جـــدالها ... سيقضى عليها كربها اليوم أو غدا
فإن لم تداركها بفضل فقد أتت ... تـــودع مولاهـــا وتستقبـــل الردى

وفى عام ١٩٠٤ اشتد المرض بالبارودى واستعصى على الطب الشفاء، وفى صحوة الموت وعلى فراش المرض الأخير ودع البارودى الحياة بقوله:

أنا مصـــدر الكلم النوادى ... بيـــن الحـــواضر والبوادى
أنا فـــارس ، أنـــا شاعـــر ... فى كل ملحـــمة ، ونـــادى
فـــإذا ركبـــت فإننـــــــى ... زيد الفوارس فى الجـــلاد[١]
وإذا نطـــقت فإننـــــــى ... قس بن ساعدة الإيـــادى [٢]
هـــذا ، وذلك ديدنـــــــى ... فى كل معضلة نـــــــاد [٣]

وفى ظهر الاثنين الثانى عشر من ديسمبر ١٩٠٤ أسلم البارودى روحه إلى خالقها فلبى داعى ربه تاركا لمصر وللعالم العربى هذا التراث الشعرى الذى لا يبلى ولا يعدو عليه الموت ولا يجنى عليه النسيان، وتهتز أركان مصر لهذه الفجيعة وأخفق قلبها ، ونعته الصحافة ونعاه أهل الأدب وأنتهت دنيا فارس السيف والقلم.

---

(١) زيد الفوارس : هو ابن حصين بن ضرار الضبى ، فارس جاهلى مشهور يضرب به المثل فى الشجاعة.
(٢) قس بن ساعدة الإيادى : من أشهر خطباء العرب فى الجاهلية.
(٣) النادّ : الداهية.